مصادرُه ومجالاتُه

***د. خليفة بوجادي**

إنّ الحديث عن موضوعِ اللسانيات التداولية في التراث العربي ليس تأصيلا للمفاهيم المعروضة في اللسانيات الحديثة، بقدر ما هو ضروري لبيان الامتدادات المعرفية للمدونة العربية، وتقديم جانب من الأفكار الرائدة التي عرضها علماء العربية قديما، وإن لم تكن تحظى بالاحتفاء أحيانا من لدن بعض الدارسين، احتفاءَهم بكل وافد حديث من المقولات الغربية.

والواقع، أن حاجة البحث اليوم إلى مقولات الدرس الغربي الحديث وكشوفاته، لا تلغي بأية حال حاجتَه القائمةَ إلى التراث العربي والإنساني على اختلاف مشاربه، لتحديد رؤاه، وضبط أصول المعرفة الإنسانية، لئلا تكون مسايرة للفكر الحديث ومعزولة عن أي مرجعية أو هوية، كما هو واقع اليوم في كثير من المجالات.

1- في مصادر التفكير التداولي العربي:

لن يتناول هذا المقال جميع ما يرتبط بالدرس التداولي، بعدّه مفترقَ طرق الأبحاث الفلسفية واللسانية، ولكنه يعرض بعض قضايا (التداولية اللسانية) بشكل خاص، لحصر مجالها في كل ما يرتبط بالتواصل اللغوي من الاهتمام بالسامع واعتبار المخاطب، وبيان دور المتكلم في صياغة الخطاب وإنتاجه، والإلمام بالعناصر الفاعلة في الإبلاغ، ومعيار الصدق والكذب في الأساليب وفي الشعر، والمطابقة مع الواقع وعدمه؛ ذلك أن دراسة اللغة في التراث العربي، ميزتها بعض السمات التي هي من أهم المبادئ التداولية الحديثة؛ فقد تناول الدارسون القدماء مثلا (1):

- أن التكلم يتم لغايات وأهداف أو إشباع حاجات أو الحصول على فائدة.

1. تُستعمل اللغة للأغراض والمآرب ذاتها.
2. يُضفي المتحاورون على الملفوظات دلالات أخرى غير ظاهرة.
3. لم تُغفل البلاغة العربية ذلك، بل إنها تعتمد مبدأ: "لكل مقام مقال".

ولقد عدّ (أحمد المتوكل) الإنتاجَ اللغوي العربي القديم يؤول في مجموعه (نحوه وبلاغته وأصوله وتفسيره) إلى المبادئ الوظيفية (4), ومن أهم ملامح ذلك:

تخص العلوم المذكورة سابقا القرآنَ الكريم, وهو موضوع دراستها. وبذلك فالوصف اللغوي 3 آنذاك لم يكن منصبا على الجملة المجردة من مقامات إنجازها, بقدر ما نظر إلى النص بعدِّه خطابا متكاملا.

بالنظر إلى طبيعة الموضوع المتناول, كان الوصف اللغوي يربط بين المقام والمقال, وبين 4 خصائص الجمل الصورية وخصائصها التداولية.

يُميَّز في الدراسات القديمة بين قسمين من البحوث؛ قسم يعتمد على الاهتمام بالخصائص 5 التداولية تأويليا؛ مطابقة المقال لمقتضى الحال, نحو (مفتاح العلوم) للسكاكي. والآخر يعتمد

على الاهتمام به توليديا؛ بمعنى أن الخصائص التداولية ممثَّل لها في الأساس ذاته, نحو(دلائل الإعجاز) للجرجاني.

يبرز في هذا المجال اهتمام النحاة والبلاغيين بدراسة أغراض الأساليب, من الدلالة الحقيقية 6 إلى دلالات أخرى يقتضيها المقام, وسيأتي بيان ذلك لاحقا.

ومن القضايا التي اهتم بها علماء الأصول, دراسة العلاقة بين اللفظ وما يحيل عليه (5) ؛ حيث نظروا إلى العبارات اللغوية مثلا: من حيث إفراد المحال عليه وتعدده, وميزوا بين عبارات عامة تحيل على معان متعددة, نحو (إنسان, كل، مَنْ الموصولة...)، وعبارات خاصة تحيل على معنى مفرد, نحو: (رجل, قلم...).

ونظروا إليها من حيث تعيين المحال عليه أو عدم تعيينه. وميزوا بين عبارات مطلقة لا يتعين فيها المحال عليه, وعبارات مقيدة تحيل على معنى معين, وهي الفكرة نفسها التي يعرضها اللغويون في باب إطلاق الألفاظ وتقييدها (6).

ربط البلاغيون والأصوليون بين البنية والوظيفة في دراسة اللغة، ودرسوا وظائف: التخصيص, 12
.التقييد, التوكيد.. وميزوا بين بنية جملة (في الدار رجل) وبنية (رجل في الدار), تمييزا وظيفيا

:يمكن استخلاص أن القدرة اللغوية لدى علماء العربية تحكمها ثلاث معارف 13

معرفة لسانية (تقتضي معرفة الدلالات والمعاني)، معرفة لغوية (تقتضي امتلاك المتكلم لقواعد
.لغته)، ومعرفة خطابية (تقتضي أن يملك قواعد إنتاج الخطاب), وكل منها تقتضي الأخرى

وهي لا تختلف عن شروط التداول اللغوي التي يقترحها (طه عبد الرحمن) للمحاورة بأبعادها
(التواصلية, حيث يجمعها في الشروط النطقية، الاجتماعية, الإقناعية والاعتقادية. (9

ومما ينبغي الاحتفاءُ به في هذا المجال أن الأصوليين ميّزوا بين دلالة أصلية مطلقة تتقاسمها جميع اللغات, ودلالة تابعة، خاصة بلغة بعينها, (10) والأولى فقط هي التي تقبل النقل والترجمة. كما أن علماء الأصول والبلاغيين يُجمِعون على أن موضوعِ الدراسات اللغوية هو دراسة خصائص البنية وعلاقتها بالمقامات المنجزة فيها.

وعن قيمة المنهج التداولي عموما، يجعله (طه عبد الرحمن) أهمّ ما يُستند إليه في تقويم الدراسة التراثية, لما يتميز به من قواعد محددة, وشرائط مخصوصة وآليات صورية, (11) فيقول: "لا سبيل إلى معرفة الممارسة التراثية بغير الوقوف على التقريب التداولي الذي يتميز عن غيره من طرق معالجة المنقول، باستناده إلى شرائط مخصوصة, يفضي عدمُ استيفائها إلى الإضرار بوظائف المجال التداولي, فضلا عن استناده إلى آليات صورية محددة".(12)

هذا، وينبغي أن لا تُغفَل جهود المفسرين في كثير من المواضع؛ حيث قدموا وقفات أمام آيات قرآنية, عكست تصوراتهم اللغوية, والتي ما إن جُمعت مع أفكار البلاغيين واللغويين وغيرهم, تقترب بوضوح من رؤية اللسانيات التداولية الحديثة إلى اللغة بعدِّها نشاطا تداوليا.

ومجموع هذه المعاني: التحول والتناقل الذي يقتضي وجود أكثر من حال, ينتقل بينها الشيء, وتلك حال اللغة؛ متحوِّلة من حالٍ لدى المتكلم إلى حال أخرى لدى السامع, ومتنقلة بين الناس يتداولونها بينهم. ولذلك كان مصطلح (تداولية) أكثر ثبوتا –بهذه الدلالة– من المصطلحات الأخرى الذرائعية, النفعية, السياقية...وغيرها.

ومن مجالاته المفهومية بالنسبة إلى اللغة:

– التناقل والتحول في المال أو الحرب بما يحقق الملكة أو الغلبة... وكذلك اللغة تظهر آثار مستخدميها وكأنهم مالكون لها, وتبدو الغلبة في الحديث بينهم, وكأن اللغة نوع من المساجلة.

الاشتراك في تحقيق الفعل: وكذلك اللغة بمعناها الاجتماعي؛ حين يستخدم الشيء الواحد 18 من قِبل الجماعة.

ولقد تناول (طه عبد الرحمن) هذا المفهوم لتقديم منهج التقريب التداولي للتراث الإسلامي، باقتراحه مفهوم المجال التداولي، وممّا ذكره: "أن الفعل (تداول) في قولنا: (تداول الناس كذا بينهم)، يفيد معنى (تناقله الناس وأداروه بينهم" (19). وجعله قسيما للفعل (دار) الذي من دلالته نقل الشيء وجريانه، نحو قولنا: دار على الألسن؛ جرى عليها، ليخلُص إلى أن المعنى الذي يحمله الفعل هو "التواصل"، ومقتضى التداول –إذا– أن يكون القول موصولا بالفعل (20).

ومن شواهد استخدامه في القرآن الكريم، قوله تعالى: "مَا أَفَاءَ اللهُ على رسولِهِ منَ اَهْلِ القُرى فلِلّه وللرّسُولِ ولذِي القُربى واليَتامَى والمسَاكين وابْنِ السّبيل كيْ لا يَكونَ دُولةً بينَ الأغنياءِ منكمْ" (21) وبيانها: "(كي لا يكون) ذلك الفيء (دولة) يتداوله الأغنياء منكم بينهم، يصرفه هذا مرة في حاجات نفسه، وهذا مرة في أبواب البر وسبل الخير." (22) ، وفصّل تفسيرَها الزمخشريّ، قائلا: "كي لا يكون الفيء الذي حقّه أن يُعطى الفقراءَ ليكون لهم بُلْغَة يعيشون بها... بين الأغنياء يتكاثرون به، أو كي لا يكون دولة جاهلية بينهم، ومعنى الدولة الجاهلية أن الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة..." (23).

- **الدّاليات: تشمل الدراسات العاكفة على الدال الطبيعي، وتمثلها العلوم الثلاثة: الصوتيات الصرفيات والتركيبيات.**
- **الدلاليات: تشمل الدراسات الواصفة لعلاقات الدوال ومدلولاتها، سواء أكانت تصورات ذهنية أم أعيانا في الخارج.**
- **التداوليات: تشمل الدراسات الواصفة لعلاقة الدوال الطبيعية ومدلولاتها مع الدالين بها، وأبواب هذا القسم ثلاثة: أغراض الكلام ومقاصد المتكلمين وقواعد التخاطب.**

إلى جانب ما قدّمه (أحمد المتوكل) في العديد من كتبه، وخلاصته أن التحليل التداولي للغة يقتضي الاهتمام بتحديد طبيعة الوظائف التداولية في اللغة العربية التي سبق ذكرها. وأهم ما يميز دراساته الوظيفية للغة أنها تستند إلى التركيب، الدلالة والتداولية (34).

وخلاصة ما تقدَّم أن أهم ما يميز الدرس اللغوي العربي القديم أنه يقوم على دراسة اللغة أثناء الاستعمال منذ بدايته؛ ومثال ذلك ما يذكره السيوطي في اللغة أنها تؤخذ استعمالا لا قاعدة، وجعل مخرج كتابه (الاقتراح في علم أصول النحو) هو ما نطقت به العرب بعدِّه الأصل في كل

ظاهرة ؛ يقول: "إذا أتاك القياس إلى شيء ما، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره، فدع ما كنت عليه" (35). ويظهر من خلال ذلك قيمة الاستعمال وما تتداوله العرب في اللغة، وأهميته في تحديد أساليبها وطرق أدائها.

وإذا ما نظرنا إلى علوم تراثنا العربي من نحو، بلاغة، فقه وأصول، تفسير وقراءات، بعدِّها وحدة متكاملة في دراسة اللغة، يمكن أن نميز من اتجاهاتها ما يهتم بوجه استعمال اللغة، وما يتصل بها من قرائن غير لفظية، نحو: منزلة المتكلم وعلاقته بالسامع، وحالة كل منهما النفسية، الاجتماعية والأدائية (حركة، صمت، ظروف التواصل، الزمانية والمكانية...وغيرها)، مما يقدم دراسة تداولية شاملة عرفتها الدراسات اللغوية العربية القديمة، وهي جديرة ببحوث مستقلة تعرض الاهتمامات التداولية في مختلف علومها.

* قسم اللغة العربية/ جامعة سطيف

الإحالات:

1- ينظر: محمد سويرتي: اللغة ودلالاتها، تقريب تداولي للمصطلح البلاغي (مقال)، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، مج 28، ع3 ،يناير/ مارس 2000، ص 30 .

2- المرجع نفسه، ص30-31 .

3- ينظر: أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري، منشورات عكاظ، المغرب، 1989، ص35 .